

النهار، تاريخ: 21/ 8 /1998 - العدد: 20734
الكتاب: عبد الرؤوف سنو: النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية 1877 – 1881: بلاد الشام،
الحجاز، كردستان، ألبانيا، بيروت 1998.

كتاب جذور الحركات القومية في الشام والحجاز وكردستان وألبانيا

جمانة ابو الروس مفرج

هل حقا اختبرت الشعوب الإسلامية في اطراف السلطنة العثمانية يقظة قومية خلال الحرب الروسية – العثمانية (1877 – 1878) والسنوات التي اعقبتها؟ يشكل هذا التساؤل محور كتاب الدكتور عبد الرؤوف سنو "النزعات الكيانية الإسلامية في الدولة العثمانية 1877 – 1881". الكتاب بحث تاريخي علمي موثق يستند في الدرجة الاولى على وثائق منشورة واخرى غير منشورة من الارشيف البريطاني وعلى الوثائق الدبلوماسية الألمانية والفرنسية التي نشرها الدكتور عادل اسماعيل كما يعتمد على مصادر عربية واجنبية عديدة. موضوع الكتاب هو التحركات التي حصلت خلال سنوات 1877 – 1881 في كل من بلاد الشام والحجاز وكردستان والباينا. ويوضح الكاتب في المقدمة انه استنتى مصر من دراسته لتمتعها اصلا منذ قبل تلك الفترة بالاستقلال الذاتي داخل السلطنة وانه حصر بحثه بالولايات الإسلامية المحكومة مباشرة من جانب الدولة راصدا كما يقول "اشكالية الولاء للسلطنة". ولفت الى ان السنوات الخمس التي يتناولها كانت من السنوات الاشد صعوبة بالنسبة الى السلطنة العثمانية اذ ظهرت الحرب الروسية – العثمانية هشاشة الضمانات الدولية لسلامة الدولة العثمانية وممتلكاتها، وتزامنت مع ازمة مالية حادة تمثلت بتوقف الدولة عن دفع الديون فأدى ارتباط مصيرها بارادة بريطانيا الى الحفاظ على استمراريتها رغبة من لندن في التصدي لمشاريع روسيا في التوسع جنوبا. يرمي بحث الدكتور سنو الى التحقق من صحة وجود وعي قومي لدى الشعوب الخاضعة للسلطنة لا ينطلق اساس من قاعدة دينية كما هي الحال بالنسبة الى الشعوب البلقانية والارمنية المسيحية في زمن بدأت تنشأ الكيانات الجديدة على اساس قومي في اوربا (ايطاليا والمانيا) وفي المناطق المسيحية المنفصلة في البلقان.

يتوصل الكاتب خلال بحثه الى استنتاجات مختلفة بالنسبة الى المناطق الاربع موضوع الدراسة فيرى انه يمكن التحدث فعليا عن نشوء فكرة قومية على الصعيد الوطني في البانيا فقط ويعتبر ان الفكرة القومية في بلاد الشام ظلت محصورة، في تلك الحقبة، بنخبة مسيحية مثقفة، وهي اندرجت في الحجاز ضمن خطط الاستراتيجية البريطانية وتماهت في كردستان مع العصبية القبلية والاقطاعية. بالنسبة الى بلاد الشام، (سوريا ولبنان وفلسطين)، يبحث الكاتب تفصيلا في الوضع السياسي – الاجتماعي للمسلمين ويدرس طبيعة حركة الاعيان التي قامت بينهم واجتماع حوالي ثلاثين شخصية اسلامية سورية للبحث في تشريح الامير عبد القادر الجزائري لتولي الملك على سوريا الجغرافية. كذلك يعرض الكاتب للمشاريع التي دعت الى حكم ذاتي في سوريا. من مشروع يوسف كرم الكونفيدريالي الى مخططات بريطانيا للسيطرة مباشرة على سوريا الى نيات الوالي العثماني مدحت باشا المقرب من البريطانيين في الاستقلال الذاتي بولايتيه على سوريا. ويتوصل خلال مراجعة الوثائق والمصادر العديدة المتوفرة لديه الى ان مسلمي بلاد الشام أثروا تقديم اسلامهم على عروبتهم كرابط بينهم وبين العثمانيين" خلال السنوات الخمس المدروسة وتجاوبوا لاحقا مع سياسة "الجامعة الإسلامية" التي دشنها بعد هذه

الفترة السلطان عبد الحميد الثاني "لابعاد مسلمي السلطنة عن اية ميول وطنية او قومية". لكنه مع ذلك لا يشاطر الرأي الذي ينفى قيام حركة بين اعيان سوريا المسلمين خلال الحرب الروسية العثمانية الا انه يرى ان هذه الحركة اتت كخطوة احترازية لمواجهة ظرف كان يبدو فيه خطر انهيار السلطنة واردا، وم تكن في الواقع حركة تبغي الاستقلال عن السلطنة. كان الامر مختلفا في الحجاز. ففي هذه المرحلة شكل الانكليز هنا محور التحرك المناهض للعثمانيين مستفيدين من الصراعات الدموية التي طالما قامت بين اسر الاشراف.

ويرى الكاتب ان بريطانيا "كانت تخطط في "هذه المرحلة المبكرة" لتدمير الخلافة العثمانية" وكان قنصلها في جدة، جيمس زوهراب مهندس سياستها الرامية الى فصل العرب عن العثمانيين. هذا علما ان سبب التباعد بين بريطانيا والسلطنة كان في هذه الحقبة، نقمة العثمانيين على بريطانيا لعدم وفائها بالتزاماتها في اعادة ممتلكات السلطنة الاسيوية التي احتلتها روسيا وتنديدهم بسياستها هذه امام مسلمي الهند في وقت كانت بريطانيا تقدم نفسها على انها دولة اسلامية. وقد رأت بريطانيا ان باستطاعتها التخلص من النفوذ العثماني لدى مسلمي الهند بنقل الخلافة الاسلامية من سلاطين بني عثمان الى اشراف مكة في الحجاز ووضعها تحت حمايتها. بالنسبة الى التحركات - - - - - الكردية العديدة التي توالى ضد العثمانيين طول القرن التاسع عشر، يرى الكاتب انها بدأت مع السياسة التي اتبعها السلطان - - - - - الثاني في بداية القرن التاسع عشر لتدعيم سلطة اسطنبول المركزية مما شكل ضربة للاستقلال الداخلي الذي تمتعت به الامارات الكردية الخمس عشرة. الا ان الكاتب لا يرى في هذه الثورات تعبيرات عن وعي قومي بل يعتبر انها انفجرت نتيجة للازمات المعيشية التي عاشتها هذه المنطقة ونتيجة لحالة انعدام الاستقرار بفعل توالي الحروب بين السلطنة وروسيا المتاخمة، ويشير الى الفلاحين الاكراد عانوا بنوع خاص خلال حرب 1877 - 1878 من اعمال السلب والنهب التي مارستها القوات العثمانية غير النظامية (الباشا بوزوق) فيما كان زعماءهم ناقلين على نتائج اصلاحات التنظيمات التي حرمتهم امتيازاتهم وساهمت في صعود الزعامات الدينية الصوفية في الاوساط الكردية (مثل القادرية والنقشبندية). هذه الظروف كانت وراء بروز زعامة الشيخ عبيدالله النهري وساعدت على اعلانه في 1880، بعد محاولة اولى فاشلة ثورة دت للمرة الاولى الى قيام كيان كردي مستقل عن السلطنة. الا ان اصطدام هذه الدعوة بمعارضة كردية قوية رفضت مقاتلة السلطنة، اضطرت الشيخ عبيدالله الى تعديل خطته وحملته على تفجير ثورة كردية ضد فارس اولا انتهت بالفشل وجعلت الحركة الكردية وسيلة طيعة في يد السلطان الذي استعملها في شرق الاناضول لمحاربة الحركات القومية الاستقلالية الارمنية خصوصا عبر "الافواج الحميدية" وايدولوجيا "الجامعة الاسلامية" التي كان لها، كما يقول الكاتب "دور كبير في بقاء الاكراد شعبا لا دولة له".

التحرك القومي الفعلي الوحيد الذي يرصده الكاتب في مجتمع اسلامي ضد السلطنة العثمانية خلال السنوات الخمس المدروسة هو ذلك الذي قام في البانيا. ومن بين اسبانيا ظهور هذا الاستثناء يبرز الكاتب قيام حركة ثقافية البانية وطنية "شكلت الوعاء الضروري لتحرك البانيا قويا اثناء الحرب الروسية - العثمانية"، الى جانب التطور الاجتماعي - الاقتصادي اذا انه "اسوة بدول بلقانية اخرى، تسارع نمو اقتصاد السوق البانياي اثناء القرن التاسع عشر ونمت المدن ونشأت فنة تجارية مدنية منفتحة على الفكر الليبرالي الغربي والثقافة اليونانية". ويفسر الكاتب الاستثناء البانياي بقوله "لا نلاحظ تربية وطنية لدى "قوميات" السلطنة الاسلامية ولا وسائل للتعبير عن الهوية المحلية الا في اطار ثقافة ووعي تاريخي اسلامي (= عثماني)". ويرى الدكتور سئو ان اهمية الحركة القومية البانية تكمن في ان غالبية البانيا تكلموا لأول مرة بصوت واحد رغم تعدد اديانهم (70 في المئة من المسلمين، 20 في المئة من الارثوذكس، 10 في المئة من الكاثوليك خلال الربع الاخير من القرن التاسع عشر). ويلاحظ الكاتب خلافا

لما كان الامر عليه في بلاد الشام، كثافة الحضور الاسلامي في اليقضة القومية اللبنانية في تلك المرحلة ويعزو ذلك الى كون "الخطر الخارجي على البانيا كان داهما اكثر منه في بلاد الشام" ولان الدولة العثمانية اظهرت في سياستها اللبنانية تخاذلا ضد مصالح البانيا القومية. كذلك يربط الكاتب بين تأثير الطريقة الصوفية البكتاشية المنتشرة في البانيا والداعية الى التسامح والوطنية من جهة وانتشار الوعي القومي لدى المسلمين من جهة اخرى.

والى جانب الاستنتاجات التي توصل اليها في شأن الوعي القومي لدى الشعوب الاسلامية المذكورة، يخلص الكاتب في بحثه الى انه كانت للتنظيمات (1839 - 1876)، التي اقترتها السلطنة تجاوبا مع الضغوط الاوروبية لتحسين وضع الاقليات وتحسين امتيازات الدول الاجنبية، اثارا سلبية في زعزعة دعائم السلطة العثمانية في الاطراف المسلمة في وقت كانت الشعوب تعاني من تردي اوضاعها المعيشية وفي وقت واجه الحكم اخطار خارجية جديدة. ويذكر في هذا الاطار ان المسلمين في بلاد الشام اعتبروا التنظيمات خيانة للاسلام من جانب السلطان عبد الحميد الاول الذي اصدرها فيما اعتبر التنظيمات نفسها في البانيا ضربة للتيار الوطني ان اذكت التفرقة الطائفية واغضبت المسلمين بتمديد فترة خدمتهم العسكرية والمسيحيين بزيادة اعباء الجزية عليهم. كذلك اتى مؤتمر برلين في اعقاب الحرب الروسية - العثمانية بانعكاسات متناقضة في الاطراف المسلمة من السلطنة فساهم في انكفاء التحركات الكيانية في بلاد الشام (لانه ابعد خطر انهيار السلطنة) فيما فجر الاوضاع في البانيا وساهم في تفاقم العلاقات بين الاكراد والارمن في شرق الاناضول.

تكمن اهمية كتاب الدكتور سنو في التحقيق التاريخي المفصل للاحداث التي عاشتها الاطراف الاسلامية للسلطنة خلال السنوات الخمس، كما تكمن في عرضه، في سياق سرده التاريخي، للاستراتيجيات التي اتبعتها كل من روسيا وبريطانيا والدولة العثمانية دفاعا عن مصالحها فكانت روسيا تعمل بشكل صريح لتوسيع ارضيها على حساب الممتلكات العثمانية، فيما كانت استراتيجية بريطانيا اكثر تنوعا واكثر شمولا اذ عملت على اساس عالمي يذكرونا الى حد ما بـ "العولمة" التي نشهدها اليوم وجابهتها السلطنة، عندما تسنى لها ذلك، باللجوء الى النزاعات المحافظة المتمسكة بالهوية الدينية فاطلقت سياسة "الجامعة الاسلامية" للحفاظ على تماسك الامبراطورية المهددة بالانهيار. الى ذلك يلقي الكتاب اضواء جديدة على تاريخ محاولات التحديث السياسي في منطقتنا وعلى العوائق التي اعترضتها في مجتمع محافظ. ويستند الكاتب الى معلومات وثائقية دقيقة ليدافع عن طرح جديد في البحث التاريخي عن اصول القوميات العربية ولكردية واللبنانية التي تطورت خلال السنوات اللاحقة للمرحلة المدروسة.

* الدكتور عبد الرؤوف سنو- النزعات الكيانية الاسلامية في الدولة العثمانية 1877 - 1881 -
- بيسان للنشر والتوزيع - بيروت 1998.